إسلام الشيخ !!

كان أبو قحافة والد أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فى ظلمة من نفسه وروحه ، لأنه ظل مشركا بالله ، غير مؤمن به مدة طويلة ، وظلمة من عينيه ، لأنه قد كف بصره ، ولم يعد يرى الضوء ينتشر فى الآفاق ، ويشرق على الوجود فيبدد الحلكة ، ويكشف الظلام . .

ولكنه شعر الآن ، وقد مكن لمحمد وأصحابه فى الأرض ، وعادوا إلى مكة فاتحين منتصرين ، بعد ما خرجوا منها فارين ، شعر بأن هؤلاء القلة على حق ، وأنهم عما قريب سيخرجون على العالم بهذا الدين الجديد ، الذى ضمن للناس سعاداتهم . .

لقد أدرك الآن ما وقع فيه من خطأ قاتل ، حينما كان ينكر على محمد ما ينادى به ، وحينما كان ينكر على ابنه أبى بكر اتباعه لمحمد وصحبته له ، وهجرته معه من مكة إلى المدينة . .

يالله لقد انقلب الوضع وتغير الحال ، وأصبحت هـــذه الفئة القليلة الذليلة ، التى كانت تقاسى الهوان فى كل مكان ، وتجابه الإذلال والقسوة ، والتجريح والطرد أصبحت عزيزة غالبة ، بيدها فى المدينة الأمر والنهى ، وبيدها فى مكة كذلك الأمر والنهى ، لايقدر إنسان أن يقطع فى أمر لا تريد نفاذه ، ولا أن يحبط شيئا تريد إتمامه ، فأى فرق بين الحالين ؟!

واندفع الشيخ يذكر مافعله مع ابنه بسبب إيمانه بمحمد ، ولومه له ، وتجريحه لهؤلاء المسلمين ، الذين هدموا ما ورثته قريش من عبادة الأصنام وتقديس الأوثان . . إنه الآن يعترف تمام الاعتراف أن هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وتلك الأوثان التي كانوا يقدسونها ، لم تكن لتدفع عن نفسها الضر ، أو تجلب الخير ، وأنهم كانوا يفعلون هذا تقليداً للآباء فحسب ، وأن العقل يأبى ما كانوا يفعلون ، وينكر هذه السبيل التي اندفعوا فيها ، وذلك التيار الذي جرفهم في قوة وعنف ، لايكاد أحدهم يستعمل المنطق ، أو يفكر لحظة فيما يفعل ، وإنه لو فعل لحطم هذه الأصنام ، واحتقر تلك الأوثان ، ولكان أول متبع لمحمد ، مؤمن به وبما جاء به من عقيدة واضحة لاخفاء فيها ولا غموض . . فالله واحد لاشريك له ، يجب أن يخلص له الإنسان العبادة ، وأن يعترف له بالعبودية ، وأن يقر له بالوحدانية ، وأن يتبع ما أمر به ، وأن يجتنب ما نهى عنه ، وبهذا وحده تستقيم أمور الناس ، وتتضح المعالم ، وتعرف الحدود . .

وهفا قلب الشيخ إلى الإسلام ، كما يهفو القلب إلى من يحب ، وأدرك أنه أضاع من عمره زمنا كان من الواجب ألا يضيع ، وكان من المحتم أن يعتز به ، وأن يكون قد استفاد منه فائدة كبيرة ، ولكن ماذا يفعل وكل شيء بقضاء وقدر ، ولم يخلص من سلطان شيطانه إلا بعد أن فتح النبي وأصحابه مكة ، ورجعوا إليها أعزاء ، بعد ما خرجوا منها أذلاء ؟ !

وعلم أبو قحافة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى ذي طُوًى ، وقف على راحلته ، وتعمم بنصف برد حَبَرة حمراء ، من ثياب

اليمن ، ولم يجعل لهذه العمامة ذؤابة (أى عذبة) بل اعتجرها مصمتة ، وقد بلغ من شدة فرحه بهذا النصر ، وتواضعه لله سبحانه ، الذى أجراه على يديه وأيدى أتباعه وأنصاره ، أن عُثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل ، من شدة تواضعه ، و إطراقه برأسه . . ! !

ما هذا التواضع العجيب ؟ إنه الآن منتصر ظافر ، فكيف لم يطغه هذا الظفر والنصر ؟ وكيف يطرق برأسه هذا الإطراق ، وكأنما يشهد الله الذى نصره ويؤمن به ، أنه على عهده به ، تواضعاً و إخلاصاً ، وحباً وعبادة ، وشعوراً بالعبودية الخالصة ، و إيمانا بالنصر المحقق ، والظفر الغالب ؟ !

أين محمد بن عبد الله بأخلاقه الفاضلة ، وصفاته الحميدة ، ومزاياه التى تجلّ عن الوصف ، من سادات قريش ، الذين يجلونهم ، و يرفعون قدرهم ومكانتهم ، و ينظرون إليهم نظرة التقديس والاحترام ، فى كل ناد ومجتمع ؟ إنه الفرق بين السماء والأرض ، والنور والظلمة ، والهدى والضلال . .

* * *

وثار شعور الشيخ ، وفاضت عيناه ، ولم يعد يطيق صبراً على هذا ، وعلم أنه حرم الخير الكثير ، لأنه لم يؤمن بمحمد من حين علم بأمره ، وسمع بنبوته ، وأن ابنه أبا بكر خير منه ألف مرة ومرة ، لأنه نال هذا الفضل

واتجه أبو قحافة إلى ابنة من أصغر ولده ، حين كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه بذى طُوًى ، وأخذ بيدها لتقوده إلى حيث يريد ، ثم قال لها فى حنان وعطف :

— أى بنية ، أظهرى بى على أبى قبيس . . اصعدى بى إلى هذا الجبل . .

وعجبت هذه البنت الصغيرة لهذا ، ولم تفهم الغرض من هذا الصعود وهذه الجولة ، فهى تعلم أن والدها كفيف البصر ، لا يرى شيئا مما حوله ، ولا يستبين شيئا مما أمامه ، فما الداعى إذن للجهد ، وما الغرض من ذلك العناء ؟ ولكن ليس من حقها أن تعارض رغبة أبيها ، فصعدت به إلى جبل أبى قبيس ، حتى بلغت القمة ، ووصلت إلى الذروة ، وقالت :

— ها قد بلغنا ما تريد . .

— هل ترين ما حولك ؟

— أجل . وفى وضوح . .

— ماذا ترين ؟

— أرى سواداً مجتمعا . . ! !

وأدرك الشيخ كنه هذا السواد ، وإن كان لم يره ، فهو يدرك بطبيعته أن هذا السواد هو الخيل ، عدة العربى فى الحرب والسلم . . أدرك هذا وإن فقد بصره ، ولم تنعكس فى ناظريه صور هذه المرئيات ، فقال لابنته :

— أى بنية ، تلك الخيل ، فماذا ترين بعد ذلك ؟

— وأرى رجلا يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً . .

— أى بنية ، ذلك الوازع ، الذى ينظم الصفوف ، يأمر الخيل ، ويتقدم إليها ، يأتمر الجميع بأمره ، ويعملون له ألف حساب وحساب . .

— قد والله انتشر السواد . .

وبدا على الشيخ التفكير ، والاهتمام الشديد ، وأخذ بيد ابنته فى قوة واندفع إلى الطريق قائلاً :

— قد والله إذن دفعت الخيل ، فأسرعى بى إلى بيتى . .

وأدركتها الرهبة والخشية ، وتملكها الخوف ، وبخاصة وأنها تعلم أن والدها رزين جداً شجاع لايخشى النائبات ، فما الذى يدفعه إلى الفرار إلى هذا الحد ؟ لابد أن يكون فى الأمر ما يخيف ، فأطلقت لساقيها الريح ، بقدر ما يسمح لها ارتباطها بوالدها ، وقيادتها له ، وانحطت به عن سفح الجبل ، فى إسراع واضطراب . .

لقد كانت صورة جميلة على الرغم من تناقضها ، فهذا شيخ مهدم القوى ، محطم البدن ، يتجه إلى النهاية المحتومة ، وأصبح من الحفرة المظلمة ، على بعد خطوات . . قد ودع آماله فى الحياة ، وانقضى منها وطره ، وإن كان لايزال يمتد فيها أمل محدود ، وأمنية متواضعة ذليلة . . أما ابنته

المظلم ، والرمس الضيق ، مهما طالت الحياة ، وامتدت أسبابها ، ومهما عم الفرح آفاقها ، وشمل نواحيها وأرجاءها . .

* * *

وعجب أبو قحافة ، ذلك لأن الخيل أدركته قبل أن يصل إلى بيته .. فكأنما هى تنحدر انحداراً ، وتطوى الأرض طيًّا ، دون أن تجد فى ذلك جهداً ولا عناء ، فما هذه السرعة العجيبة ، وذلك التقدم المطرد ؟ !

بيد أنه تألم أشد الألم حينما صرخت ابنته ، بعد أن ابتعد عنهما رجل لايدرى من أمره شيئا . . لقد كان فى عنقها طوق من فضة ، تتزين به ، وتتحلى بمنظره الجميل ، وتشعر بوجوده فى عنقها بلذة لا تدانيها لذة ، وفرح لايعادله فرح . . فرح الصغيرة بقطعة حليها ، التى تشعرها بالأنوثة والجمال ، وأنها شئ مرغوب فيه ، ومحبوب من كل من يراه ، وأن هذه الحلية تلفت إليها الأنظار ، وتجذب العيون . .

وفى الطفلة الصغيرة طبيعة المرأة الكبيرة ، لا تختلف هـذه الطبيعة إلا فيما يدعو إلى التفكير والروية ، والتدبر والتعقل ، كما أن فى الطفل والصبى طبيعة الرجل ، يحاول أن يسبق الأيام فيظهر بمظهر القوة ، ويلذ له أن يشعر بهذا ، وأن غيره يراه رجلاً فى حركاته وسكناته . . ! !

لم يدر أبو قحافة من هذا الرجل ، ولماذا فعل ما فعل ، وهل طمع فى هذا الطوق يأخذه ليبيعه وينتفع بثمنه ، أم فعل ذلك لمجرد الانتقام

أو العبث واللهو؟ لم يدر شيئا من ذلك .. ولم يدر أيضا أمشرك هو على دين قريش ، يعبد الأصنام ويقدس الأوثان تقربا للآلهة ، أم هو من الذين آمنوا بمحمد ، وصدقوا بما جاء به من القرآن والدين الجديد ؟ إن هذا لايليق برجل أن يعمله بحال من الأحوال ، وإنها السرقة الجريئة الدنيئة ، وإن أتباع محمد لايرتكبون مثل هذه الأمور . . . إذن فلا بد أن يكون الذى فعل هذا نكرة من النكرات ، التى تعيث فى الأرض فساداً ، لاتخاف طائلة العقاب ، ولا تخشى إلاً ولا ذمة . .

لقد حزن أبو قحافة حزناً عميقاً ، لا لأن قيمة الطوق غالية ، أو لأنه فريد فى بابه ، أو عزيز المنال ، بل لأن ابنته حزنت عليه ، ووجدت فى قلبها لذعة محرقة ، وأنها ليست فى كنف رجل تُخشى سطوته ، أو يرهبه الناس ، بل بلغ به الضعف والوهن ، أن أصبح غير مرهوب الجانب ، لايمكنه أن يحمى الذمار . .

لقد آلمه هذا المعنى أشد الألم وحز فى نفسه حزاً عميقاً ، فتضاءلت نفسه فى ناظريه ، وعلم أنه لو كان يتمتع بنور عينيه ما أقدم هذا الغاصب على فعلته الذميمة ، ولما استهان به إلى هذا الحد الأليم

يا لله ! ألا يرعى هذه الشيخوخة ؟ وهذا الضعف ؟ وهذا العمى ؟ كيف يتناسى هذا كله ، وهو نهاية كل حى ، وعاقبة كل إنسان ؟

وثارت عواطف أبى قحافة ، وهاجت أحاسيسه ومشاعره ، ففاضت

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، واتجه كعادته دائما عند
خل أى بلد إلى المسجد ، حيث ينزل ضيفاً على خالق الكون ،
ئ النسم ، رب العالمين ، وليشعر نفسه أنه فى حمى ذلك الجناب العالى
بيده ملكوت السموات والأرض ، واتصلت الأحاديث بين الرسول
، صحابته . .

وفى هذا الحين قال أبو بكر رضى الله عنه لأبيه :

— يا أبت ! طالما تواتيك الفرصة ، فلا تنتهزها ، ولا تقبل عليها ،
نها تمر فى هدوء ، وتفلت منك ، وتبقى بعد ذلك وليس فى يدك منها
، فما هكذا هم الرجال . .

— ماذا تعنى يا بنى ؟ !

— أعنى أن الإسلام فرصة يجب أن تهتبلها وتغتنمها ، ولا تبقى كما أنت
مات الشرك والضلال . .

— ظلمات الشرك . .

— أجل ، ولقد أصبحت على بعد خطوات من النهاية المحتومة ،
ـ أن تقضى وأنت على خير حال ، وليس بعد الإسلام والإيمان خير ،
راء التوحيد غاية لإنسان . .

وصمت أبو قحافة ، وبانت عليه علائم الاقتناع ، وتطامنت رقبته ؛
أبو بكر هذه الفرصة ، ولم يدعها تفلت ، وأخذ بيده يقوده إلى رسول
لى الله عليه وسلم . . يقوده إلى الحياة السعيدة الهانئة ، والنور الساطع ،

والضياء الغامر . . إلى الفيض الإلهى ، حيث يرد هـذا المورد العذب ، فترتوى منه الروح ، ويتطهر الجسد من أدران الشرك والضلال ، ويدع ذلك الطريق المظلم ، الذى يؤدى بكل سالك فيه إلى الهاوية السحيقة ، حيث ظلام الروح ، ودنس النفس ، وقذارة البدن . . ! !

وشعر أبو قحافة وهو سائر مع ولده أبى بكر بنشاط عجيب ، وارتياح يغمر نفسه وقلبه ، ويسيطر على حواسه ومشاعره ، فلا يزال الضمير منزويا ، فى ناحية خفية ، منكمشا فى موضعه ، ينتظر الفرصة ليتحرك ، ثم يثب ويقفز ، ويؤدى مهمته على خير وجه ، فيؤنب ويلذع ، ويخز وينزع ، ويحمل دائماً لواء الحق ، مقاوماً شرور النفس ، وفساد النية ، وسوء المعاملات . .

وما أعنف الضمير حين يستيقظ فى هذا الحين ، بعد ما يطول رقاده وركوده ، وخموله وهموده .. إنه لايزال يصرخ بصاحبه ، ويدوى فى عنف وجبروت ، حتى يهدف به إلى الغاية ، ويصل به إلى الحق . .

* * *

وعجب الرسول الكريم حينما رأى أبا بكر يقود والده إليه ، فهو على ما هو عليه من الضعف ، وتقدم السن ؛ فأدركته الرحمة به ، والشفقة عليه وقال فى عطف :

— هلا تركت الشيخ فى بيته ، حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ !

فأجاب أبو بكر فى عزم وإيمان :

— يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك ، من أن تمشى إليه أنت ..

ووجد أبو بكر لهذه العبارة أثراً ظاهراً فى نفوس السامعين ، وعلم أنه أعلن الحق الذى يؤمن به ، وأن العلاقة ليست أبوة و بنوة ، أو أخوة نسب ، أو أمومة وعمومة وخؤولة . . إن هذه كلها علاقات لا قيمة لها بجانب العلاقة الأولى ، التى يجب أن يهتم بها كل فرد ، وينظر إليها كل إنسان .. إن العلاقة التى تستحق التقدير والإجلال، والنظر بعين الاعتبار ، هى علاقة الإيمان والإسلام ، فهى الخالدة الباقية على مر العصور والأيام ، وهى التى تنقذ من الهلاك ، وترفع الدرجات ، وتكون شفيعاً يوم لا تنفع الشفاعة إلا بإذن الله . .

وارتاح الرسول صلى الله عليه وسلم ، لإجابة أبى بكر ، فهى إن دلت فعلى الإيمان المطلق ، وتقديم الله على كل شىء ، وعدم النظر إلى غيره أبداً مهما كان الأمر ، وليس وراء هذا أمل لمسلم ولا مؤمن ، ومن كأبى بكر فهما لدقائق الدين ، وتمتعا بنور اليقين ، وحرصاً على جمع كلمة المسلمين ؟ .

وارتاح أبو قحافة لما دار من حديث ، فلم يعد يشعر بتلك العزة الآثمة ، والنغمة المقيتة ، والعصبية الجاهلية ، وإنما شعر بنفسه تتطامن ، و بقلبه يتفتح للنور الجديد ، وكأنما ملك عليه ذلك حواسه ومشاعره ، فلم يكن كما كان بعداً عن الحق ، وانصرافاً عن الله ، ربه ورب محمد ورب الناس أجمعين .

سبحانك اللهم مقلب القلوب ، ومغير الأحوال ، أحسنت خاتمة هذا

الشيخ ، إكراما لابنه الذى يعتبر دون ريب من الرعيل الأول ، الذين رفعوا منار الدين الإسلامى ، وأقاموه على أساس متين ، وقرار مكين ، من العدل الشامل ، والخير المطلق ، والصلاح المبين . . ! !

وأجلسه أبو بكر بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لينال الرضا الشامل ، والفضل العظيم ، فمسح الرسول الكريم صدره ، ثم قال له فى هدوء وإرشاد ، وعطف وإشفاق :

— أسلم . .

ووقعت هذه الكلمة من نفس أبى قحافة موقعاً عظيما ، هزت مشاعره وأحاسيسه ، وملكت زمام نفسه ، وأحس بصداها فى قلبه يتردد فى قوة وعظمة وإجلال ، وإذا به يندفع فى عزم وحزم ، وإخلاص ويقين ، قائلاً :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . .

وكأنما أعجبت هذه الحال الجديدة من فى المجلس ، وفرحوا بها ، فقالوا جميعاً فى نفس واحد :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . .

وصمت الجميع مغتبطين ، فلقد انضم إليهم جندى جديد ، نزل الوجود نزلة أخرى ، وكأنما أراد الرسول أن يحقق هذا المعنى فى نفوسهم ، ويؤكده ويقويه ، فقال لأبى بكر :

— غيروا من شعره هذا . .

ونظر أبو بكر إلى والده ، فإذا برأسه تشبه شجر الثغام ، فهى بيضاء

ليس بها شعرة واحدة سوداء ، وكأن هذه الشيبة كان من الواجب أن تشيب فى الإسلام ، وأنها الآن نذير الضعف والوهن ، والخور والانحلال ، فمن المناسب أن تأخذ لوناً آخر ، فيه طابع القوة والصحة والعافية . . فلتخضب إذن بالحناء ، فيتوارى هذا البياض الذى يجلل رأسه ، حتى يأخذ مظهره بين إخوانه المسلمين اللائق به ، وليبدأ عهداً جديداً كله العبودية لله ، والجهاد فى سبيل مرضاته ، وإعلاء كلمته ، ورفع لواء الحق فى كل مكان . .

* * *

ولم ينس أبو بكر طوق أخته ، فقام بين الحاضرين ، وأخذ بيدها فى عطف وقال فى صوت مرتفع :

— أنشد الله والإسلام طوق أختى . .

ولكن أحداً لم يجبه ، إذن فليس من أخذه بينهم ، وإلا لبادر بتقديمه عن رضا وطواعية ، وهنا اتجه إلى أخته وقال :

— أى أخيـة ، احتسبى طوقك ، فوالله إن الأمانة فى النـاس اليوم لقليل . .

وصمت ، ولكن فرحه بإسلام والده فاق كل فرح ، ورؤى يتدفق البشر فى وجهه ، وتفيض به نفسه ، ولم يخف ذلك كله على من حوله ، فأقبلوا عليه وعلى والده مهنئين . . ! !